حكاية
الرداء المقاوم للرصاص
(قصة موضوعها الاستغفار و آثاره)
زياد غزال فريحات

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة

الرداء المقاوم للرصاص

(قصة موضوعها الاستغفار و آثاره)

زياد غزال فريحات

بسم الله الرحمن الرحيم

هاتفتني ميرنا وتوسلت إلي أن أرافقها إلى الكنيسة لأمر هام فقلت لها باستغراب:

*– كيف أذهب معك وأنا امراة مسلمة .

كرّرت توسّلها ورجاءها وقالت:

لا يوجد ما يدل أنك إمراة مسلمة فنحن مظهرنا واحد ...أرجوك يا سلمى أنا في أمسّ الحاجة إليك غداً.

وافقت على الذهاب معها والاستغراب يغمرني، فرغم صداقتنا القديمة لم تطلب مني طلباً مثل هذا، وفي الصباح التقينا وأخبرتني أنها على موعد مسبق مع القس لأجل الاعتراف له عن ذنوبها ليمنحها المغفرة نيابة عن الرب، سألتها:

*– لماذا أنت مضطربة ؟

–:لأنها المرة الأولى في حياتي .

دخلنا إلى الكنيسة ثم دخلنا إلى قاعة يتجمع فيها الأشخاص المذنبون وهم ينتظرون دورهم للجلوس على كرسي أمام القس ليعترفوا له بذنوبهم ، وبعد ساعة تقريباً جاء دور ميرنا فذهبت و أقفلت خلفها الباب فمكثت ما يقارب ربع ساعة ، ثمّ خرجت ووجهها مصبوغ بالخجل الذي أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً ، وبعد

أن خرجنا من باب الكنيسة أخذت تخبرني عن القشعريرة التي أصابت جسدها لحظة الاعتراف، ثم تنهدت تنهيدة عميقة وخاطبتني :

*– آه يا سلمى كم أحسّ الآن بالراحة والطمأنينة بعد أن منحني القس المغفرة نيابة عن الرب.

وفي الطريق وقفت ميرنا أمام عربة لبيع الكعك والسمسم واشترت لي ولها ومشينا حتى افترقنا، وصلت البيت قبل عودة زوجي من عمله وولديّ خالد و رائد من مدرستهم.

وعندما قدم زوجي قصصت له ما حدث مع ميرنا ،فابتسم ، فقلت له :

*– ما الذي يجعلك مبتسماً ؟

قال وهو يتحاشى النظر إلى وجهي

*– منذ زواجنا لم أسمعك تعترفين بخطأ ولم أشاهدك تعتذرين لأحد.

تظاهرت بالغضب وذهبت إلى المطبخ، والحقيقة أني لم أكن غاضبة، فقد سمعت هذا الانتقاد من زوجي عدة مرات، فأنا أكره الاعتذار لما فيه من الانكسار والرجاء في العفو والطمع في الصفح وكلّ ذلك صور ساطعة للذلّ، كم أمقت الاعتذار لما فيه من المهانة و الانكسار والتذلل .

وفي نهاية الأسبوع ذهبنا لزيارة أهل زوجي خارج مدينة عمان وأثناء وجودنا هناك تكلمت بكلمات بحق عمتي. رأى الجميع أنها كلمات جارحة ،وفي طريق العودة لم يكلمني زوجي ،كما أني كنت غير مستعدة للاعتراف بذنبي ولم يخطر في ذهني مجرد خاطر أن اعتذر لعمتي .

فجأة وسط هذا الصمت المشحون بالتوتر إذا بالسيارة تنحرف وتتدحرج في الوادي وفي هذه اللحظات فقدت الوعي ، وبعد مدة لا أعلم قدرها فتحت عينيّ وإذا بي على بعد أمتار من السيارة تفصلني عنها صخرة كبيرة منبسطة ، وما هي إلا لحظات حتى أخرج الناس زوجي محمولاً فاقداً الوعي و وضعوه على الصخرة المنبسطة ثم أخرجوا خالد و رائد و وضعوهما بجانب أبيهما وخيط غليظ من الدماء يسيل و يتجمع في بقعة منخفضة على الصخرة ، فصرخت والرعب يلتهمني ويفقدني الوعي .

استيقظت و أنا في المستشفى مصابة بكسر في الفخذ الأيسر وأخي و زوجته بجانبي ، سألت على الفور عن زوجي وولديّ ، فأخبرني أخي أنهم نُقلوا إلى المدينة الطبية لإجراء فحوصات غير متوفرة في هذا المستشفى وقال ليخفف من خوفي وقلقي :
*– إن إصاباتهم ليست خطيرة .

-: إن لم تكن خطيرة فلماذا نقلوهم ؟

*- لأن بعض إصاباتهم في الرأس .

فطلبت أن أكلمهم عبر الجوال، وعلى الفور قام أخي بالاتصال مع حماي، فأخبره عمي أنهم نائمون ، وفي اليوم التالي قرر الأطباء أن كسري لا يحتاج إلى عملية و إن الجبيرة تكفيه ، غادرت المستشفى بعدما قضيت فيه خمسة أيام مصطلية بنار القلق والخوف لأنّي لم استطع خلالها أن أكلّم ولدَيَّ وزوجي، عزمتُ على التوجه من المستشفى إلى المدينة الطبية مباشرة ، غير أنّ أخي تعذّر بانتظار مديره له لأمر هام، ونظر في عيني من مرآة السيارة وقال :

*- صدقيني لا أستطيع الذهاب اليوم، سنذهب غداً، هذا وعدٌ مني، ستمكثين معنا إلى حين خروجهم من المستشفى. وفي اليوم التالي صحوت باكرا، وذهبت إلى الحمام معتمدة على العكازين، كان الوضع صعباً إلا أنني عازمة على الاعتماد على نفسي ، ومقاومة تسرّب هذا الكسر إلى قلبي، وخلال عودتي إلى غرفتي ، دققت باب غرفة أخي ، ففتحت زوجته الباب، و على الفور حاولت مساعدتي ، إلا أني أصررت على الاعتماد على نفسي ، وقلت لها :

*- أريد عمل ماكياج خفيف جداً ... هلّا اعرتِني الأدوات.

هزّت رأسها ودخلت غرفتها و رجعت إلى غرفتي ، وبعد لحظات جاءني أخي وزوجته ، وبعد صمت مريب قال:

*– علينا أن نؤجل ذهابنا إلى المدينة الطبية ، لأنّ زوجك وولديك نُقِلوا إلى غرفة العناية المركزة ، لقد تدهورت حالتهم ولا أحد يعرف السبب .

نهضتُ وأخذتُ أسير نحو باب الشقة وأنا أضرب العكازين على الأرض غاضبة، فاعترضني أخي وصرخ مشفقا

*– إلى أين ؟

_ إلى المدينة الطبية ، لن أرجع حتى أرى ولديّ وزوجي.

*– اجلسي دقيقة، واسمعيني وبعدها اعملي ما تشائين.

جلسْت والفزع يتسرب إلى أحشائي كلّها ، وأخذ أخي يمهد شيئاً فشيئاً، ليخبرني بوفاة زوجي و ولديّ نتيجة الحادث ، في تلك اللحظة شعرت بنهايتي ... سمعت انفجار معاني حياتي ، ورأيت سبب وجودي في الحياة مذبوحاً أمامي ، بكيت بكاء المرأة المذهولة التي لا تستطيع استيعاب أو حتى تخيل واقعها الجديد .

مكثت أسبوعاً والمعزّون من أقاربي وأقارب زوجي لا يفارقون مجلسي ، وبعدما انقطع المعزّون ، مكثت وحيدة في غرفتي ، أنهض مبكراً لأوقظ ولديّ على موعد المدرسة المعتاد، وما أن أخرج من غرفتي حتى أتذكر الواقع القاتل ، كثيرا ما نهضت عند سماع الجرس لأفتح الباب لزوجي فتوقفني الذكرى الأليمة ، فأرجع إلى غرفتي وقلبي شظايا.

بعد أسبوعين على فاجعتي، ذهبت مع أخي لزيارة قبور الأحبة، وقفت على قبورهم أكثر من ساعتين والبكاء لم يتوقف، والآهات تعلو وتنخفض طوال الوقت ، ونظراتي لاتجرؤ على الابتعاد عن قبورهم، عبر الدموع والآهات والحسرات كان نداءٌ ينبعث من أعماقي طوال الوقت، اسمع النداء لكني لا أفهمه ، والنداء في أعماقي يعلو ويعلو ثم شرع يدق بعنف قلبي وعقلي ،و أنا لا أفهم ماذا يريد النداء الصاخب في أعماقي ، وما أن غادرت قبورهم عدة أمتار حتى فهمت هذا النداء ، إنه يطلب مني أن أطلب الصفح من زوجي وولديّ عن أخطائي بحقّهم، يناديني هذا الصوت في أعماقي أن أعتذر لهم عن تقصيري في حقهم ، أن أطلب العفو عن زلاتي ، هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي ينبعث من داخلي نداءٌ يدفعني لطلب الصفح والعفو والاعتذار، ورغم هذا الموقف الرهيب وهذا النداء اللحوح الصارخ في أعماقي ، لم أستطع أن أجيب هذا النداء بل ربما أني لا أعرف كيف يمارس طلب الصفح و الاعتذار، ومضيت على العكازين ببطء شديد و النداء يدوّي في أعماقي.

مضت الأيام وهي كئيبة سوداء ، وبعد فك الجبيرة بأشهر عملت مدرسة في إحدى المدارس الخاصة الصغيرة ، وذات مرة وبينما كنت متوجّهة إلى مدرستي في الحافلة العامة سمعت حديث شابّين كانا يجلسان بالقرب مني، كان أحدهما يروي لصديقه قصة صديق له حاول الانتحار بإطلاق رصاصة في فمه ، ولكنه لم يمت، وبعد أيام معدودة في الغيبوبة اسيقظ هذا الشاب ابكما، أراد أن يطلب الصفح من الله بصوته لكنه لم يستطع ، كان يكتب لزوّاره :

*– لا أريد من الحياة سوى أن أستغفر الله بصوتي ، أن أطلب منه الصفح بكلمات أسمعها، أن أطلب العفو والمغفرة بعبارات مشبعة بالندم والحسرة ، أريد الاعتذار إلى الله بفم ملآن، لا أريد أن أنطق الاستغفار عن الذنب فقط بل أريد أنطق الاستغفار لتقصيري في حق الله ، لعجزي عن شكر الله على نعمه الكثيرة التي لم أكن أراها أو أشعر بها .

وصلت الحافلة إلى مكان عملي ولكني لم أنزل وبقيت اسمع ما كتبه هذا الشاب الذي فقد نطقه بسبب ذنبه لمحاولته الانتحار وكانت أخر كلمات سمعتها من كتابة هذا الشاب :

*– عبارات الاستغفار محبوسة في قلبي ، تتفلت لتخرج من فمي دون جدوى، كم أتمنى أن أنظر إلى السماء وأقول استغفر الله العظيم ،و أبقى أرددها حتى يبح صوتي .

نزلت من الباص وأنا على بعد مئات الأمتار عن مدرستي ، فوقفت على الرصيف وأخذت شهيقاً ونظرت إلى السماء وقلت *– استغفر الله العظيم .

ومضيت إلى عملي وكلما مشيت عدة خطوات وقفت ناظرة إلى السماء وقلت (استغفر الله العظيم) وكلما أقتربت من المدرسة أكثر ازداد إحساسي بقشعريرة في جسدي أكثر ،و بشيء جامدٍ يذوب في صدري ، وبغلاف يتهتك عن قلبي ، وبستائر تتزاح عن عينيّ، وبأثقال تتساقط عن ظهري ، دخلت المدرسة وتلك الأحاسيس ، ما زال طعمها يتجدد في قلبي، ولّما وصلت إلى الحصة الثالثة حيث كنت في استراحة ، أخذت فطوري وأردت الابتعاد قليلا لحاجتي للجلوس وحدي ، وعندما اقتربت من نوافذ الصف الثالث الأساسي ، سمعت المعلمة تدرّب الطلاب على أنشودة ، المقطع الذي يكررونه بعد كل فقرة هو

ربِ اغفر وارحم
واعف وتكرم
وتجاوز عما تعلم
إنك تعلمُ ما لا نعلم
إنك أنتَ الأعز الأكرم

وقد علمت فيما بعد أن هذا المقطع هو دعاء للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومكثت بجانب النافذة اسمع، ودون وعي مني أخذت شفتاي تتحرك وتردّد هذا المقطع بلا صوت ، ثم طلبت

المعلمة من الطلاب إعادة الأنشودة ، فأخذت أردد المقطع مع الطلاب بصوت خافت، ثم أعاد الطلاب الأنشودة للمرة الثالثة ، فدخلت إلى صفهم بعفويّة، رددت المقطع معهم بصوت عالٍ وبانفعال صارخ ، ولما انتهت الأنشودة ، نظرت المعلمة إلى شعري المكشوف ، وقالت :

*– هل أعجبتك إنها بقلم والدي ، عندما كتبها والدي قال أنا لا أتقن كتابة الشعر إنما أتقن الاستغفار ، وكيف لا أتقنه و رسول الله صلى الله عليه وهو المعصوم من الذنب كان يستغفر ربه في اليوم أكثر من سبعين مرة .

قلت لها :

*– إنها أنشودة رائعة ...إنها حقاً رائعة .

:– كان والدي يردد دائماً ....الاستغفار نبع من ينابيع الخيرات وقلعة تتحطم على جدرانها الشرور...الاستغفار هو رداء مقاوم للرصاص.

انتهى الدوام وشعوري بالتعب أقلّ من العادة ، عدت إلى البيت وعلى بعد مئات الأمتار من البيت نزلت من الحافلة ، وسرت بهدوء نحو البيت وأنا أنظر إلى السماء وأقول استغفر الله ، ولما اقتربت من البيت شرعت أردد

ربِ اغفر وارحم

واعف وتكرم
وتجاوز عما تعلم
إنك تعلمُ ما لا نعلم
إنك أنتَ الأعز الأكرم

دخلت بيت أخي ، وذهبت للاغتسال على الفور ، ثم اندفعت للصلاة ولكني لم أجد غطاءً أضعه على رأسي ، فوضعت المنشفة ، وشرعت أصلي ...هي صلاة لله فقط لم أحدد في نيتي صلاة معينة ، كما أني في الحقيقة لا أتقن الصلاة ، فكانت صلاة مليئة بالأخطاء ، ولكنها أيضاً مليئة بالبكاء والخشوع وطلب الصفح والعفو والمغفرة .

ومنذ ذلك اليوم التزمت الحجاب والصلاة والاستغفار وأصبح كل كلام عن الاستغفار يشد انتباهي ويلتصق بذاكرتي ، وبعد عدة أسابيع من ملازمتي الاستغفار ، ذهبت لزيارة قبور ابنيّ وزوجي، وما أن وقفت على قبورهم حتى تساقطت الدموع وانطلقت نداءات الصفح والاعتذار، ولم يخرج من قلبي وفمي طوال مكوثي سوى طلب الصفح والعفو من زوجي و ولديّ ، لقد اعتذرت إليهم لأول مرة في حياتي و بعد حياتهم ، غادرت ونفسي هادئة ، لقد فعل الاستغفار في نفسي الكثير ، لقد

استطاع الاستغفار أن يحلّ عقدة الإصرار الخاطئ في قلبي وأعماقي .

وبعد ما يقارب السنتين من وفاة زوجي تقدم لخطبتي رجل توفيت زوجته ،وتركت له ولدين هما في عمر ولديّ عليهما رحمة الله ، تزوجت منه وعشت معه وولديه ، كنت أتضايق كثيراً من الولدين و كلما تضايقت أكثر استغفرت الله أكثر ، ومرّت الأيام حتى انقطعت دورتي الشهرية ففرحت فرحاً شديداً معتقدة أني حامل، فقد بلغت من العمر ثمان وثلاثين سنة ، وفرصتي في الحمل تتضاءل مع الأيام ، فهرعت إلى إجراء الفحص ، لكن النتيجة جاءت بانتفاء الحمل ، ثم هجرتني الدورة عدة شهور، وفي كلّ شهر أكرّر إجراء الفحص وتأتي النتيجة في كلّ مرة النفي ، أخذ الإحباط يبتلعني بتمهل ، فقد كنت أطمع بأن يمدني الله بالأولاد ، هذا ما كان يراودني عندما أردد قوله تعالى (استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين) كان في داخلي أمل يكبر بأني سأنجب أولاداً من جديد ، ولكن أصبحت أحدث نفسي :

*– ربما يمدني الله بأولاد ليسوا من رحمي قد يكونوا أولاد أخي أو أولاد زوجي...الإمداد لا يعني الإنجاب

ومع تكرار انقطاع الدورة عدة شهور وتكرار إجراء الفحص الذي تأتي نتيجته بالنفي ، وصلت إلى قناعة أن الأولاد الذين سيمدني الله بهم ليسوا من رحمي ، وما كدت أكمل سن الأربعين حتى شعرت بتقلبات جسدية ونفسية لا تخفى على إمرأة جربت الحمل ،ولكني بقيت متشككة بسبب تضائل الأمل في داخلي ، ولكن الأمل بدأ يكبر مع الأيام ، فذهبت لإجراء الفحص ، فجاءت النتيجة أني حامل ، ومرت أيام الحمل وأنا فيها أقوى من السابق ، وجاءني خالد ، فقد سميته على اسم أخيه المتوفى وبعد سنة أنجبت رائد وهو أيضا على اسم أخيه عليه رحمة الله.

ورغم أني أنجبت خالد ورائد وأنا في الأربعين إلا أني كنت أقوى من السابق ، بل أشعر أني أزداد قوة ، ليس في جسدي فقط بل في نفسي ومن هم حولي ، لقد منحني الاستغفار قوة على الدوام ، أذكر عندما سمعت لأول مرة قوله تعالى (يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) تعجبت من علاقة الاستغفار بالقوة ، ولكن هذا التعجب تلاشي بعد حملي بخالد ورائد وأحسست الفرق بين الأمس واليوم

كبر خالد ورائد وأصبحا في المدرسة و في صباح يوم جميل ذهبنا مع عائلة أخت زوجي في رحلة إلى البحر الميت وأثناء وجودنا

على الشاطئ تكلمت بكلمات بحق أخت زوجي رأى الجميع أنها كلمات جارحة ، فاعتذرت على الفور وطلبت منها الصفح بلا تردد، وأكدت لها أنها كلمات غير مقصودة ، فقبلت اعتذاري وعادت المياه إلى مجاريها وعند عودتنا رغب ولدا زوجي العودة مع عمتهما حيث سنلتقي في بيتهم في عمان وغادروا قبلنا بخمس دقائق ، وفي طريقنا رأيت زوجي مبتسماً فسألته عن سبب ابتسامته فأجابني وهو يكرر النظر في وجهي

*– أبتسم لسروري باعتذارك السريع لأختي .

ارتسم على فمي طيف ابتسامة، ثم أزحت وجهي ونظرت من النافذة إلى السماء وقلت في نفسي:

*– أستغفر الله العظيم

وأغمضت عينيّ وإذا بالسيارة تُصدم من الخلف ، وتتزاح نحو الوادي ، وإذا بالسيارة تنقلب وتتدحرج إلى الوادي ، في تلك اللحظات فقدت الوعي ، ثم استيقظت وأنا بجانب صخرة منبسطة ، نظرت إليها فرأيت أثار خيط غليظ من الدماء ، وبقايا بقعة دماء ، أعرفها جيداً ، وما هي إلا لحظات حتى أخرج الناس زوجي وولديّ فاقدي الوعي ووضعوهما على الصخرة ، فصرخت صرخة ملأت الوادي ،وفقدت الوعي على الفور .

استيقظت في المستشفى و لم أُصَب إلا برضوض في فخذي الأيسر ،نظرت إلى أخي وزوجته ، فخاطبت أخي باكية .

*– أين ولداي وزوجي ؟

_: إنهما بخير ...لا تقلقي إصاباتهم خفيفة

صرخت بعصبية وخوف .

*– أريد أن أكلّمهم!

اتصل أخي ولكن لا أحد يجيب، اقترب مني وقال :

*– يبدو أنهم نائمون.

عندئذ أجهشت بالبكاء وبقيت أبكي حتى أجبرتني الحقن المسكنة على النوم.

وعندما استيقظت في الصباح فتحت عينيّ وإذا خالد ورائد وزوجي أمامي ، أصابتني صدمة الدهشة ، حتى خيل إليّ أني أحلم ، وظلت نظراتي المتشككة تأكل وجوههم بصمت مشبع بالفرح .

وعند العصر غادرت المستشفى مع زوجي وولديّ ، وبين لحظة وأخرى أحدق بهم لأزداد يقيناً أن ما أراه حقيقة ، ولما تلاشى ذهولي لم يخطر في بالي سوى قوله تعالى (وما كان الله معذبهم و هم يستغفرون)، لقد شكل الاستغفار لنا سياجاً واقيا و أماناً من عذاب الله ...الاستغفار هو بالفعل كما قال والد زميلتي "رداءٌ مقاوم للرصاص."

وبعد تلك الحادثة بأشهر اتصلت ميرنا وطلبت مني مرافقتها إلى الكنيسة ، فهي على موعد مسبق مع القس لتعترف له بذنوبها فيمنحها المغفرة نيابة عن الرب ، فرحبت بذلك و أخذت إجازة من عملي وذهبت معها ولكني لم أدخل مبنى الكنيسة ومكثت في الساحة داخل الأسوار ،فمظهري اليوم يدل بوضوح أني امرأة مسلمة .

مشيت في الساحة ببطء شديد ، وأخذتني الذكرى إلى أول مرة استغفرت الله فيها ، كان الاستغفار بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء ، الاستغفار هو سؤال الله مباشرة الصفح عن الذنب والستر عليه من جميع البشر دون استثناء ، ما أجمل الاستغفار فهو يزيل الصدأ الذي يتراكم على القلوب و النفوس، ويأخذك إلى مناجاة الله ويقودك إلى معرفته ، هو شعار عظيم للعبودية وسبيل للخروج من كل ضيق والفرج من كل هم وسبب لحصول الرزق والأولاد و مصدر من مصادر القوة ، لقد عشت مع الاستغفار سنوات وسنوات ، فرأيت ضياءً في وجهي وشعرت بنور في قلبي وراحة وطمأنينة في نفسي .

وفي ظل شرودي مع الاستغفار سمعت صوت ميرنا يناديني ، أخذت تخبرني كيف ارتبكت عندما جلست أمام القس ، ولكنها

تمالكت نفسها واعترفت بذنوبها ، وكم تشعر الآن بالراحة بعد أن منحها القس المغفرة نيابة عن الرب . وأثناء سيرنا وقفت ميرنا على عربة لبيع الكعك والسمسم و أشترت لي ولها ومشينا معاً ثم ودعتها ، وصلت البيت قبل زوجي وولديّ ، فوقفت عند النافذة ونظراتي تتنقل إلى الناس المارين ثم نظرت إلى السماء وأخذت أردد بصوت مسموع

اللهم أنت ربي

لا إله إلا أنت

خلقتني وأنا عبدك

وأنا على عهدك و وعدك ما استطعت

أعوذ بك من شر ما صنعت

ابوء لك بنعمتك علي و ابوء بذنبي

فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت

ثم قفزت الى ذهني بحنان أنشودة الطلاب ، فتحركت شفتاي بصوت خافت

ربِ اغفر وارحم

واعف وتكرم

وتجاوز عمّا تعلم

إنك تعلمُ ما لا نعلم

إنك أنتَ الأعز الأكرم